٧ـ السّريالية (ما فوق الواقع)ـ

(Surrealism)

سبق أن ذكرنا أن تزعزع إيمان الإنسان الغربيّ بأية ثوابت أو يقينيات معرفية كان من أبرز أسباب هذا التقلب السريع في مزاجه ، فما يؤمنْ به اليوم يكفر به في غده ، وما يَشُقْهُ ويبهره في اللحظة الراهنة يفقدْ بريقه وجاذبيته بعد ذلك بقليل .

يقول جون فليتشر : «إن التعقيد في العصر الثوري لا يجعل من الضروري ولا من الممكن للكتّاب أن يتخذوا مواقف شديدة التحديد ، تلك المواقف التي كانت تعني شيئاً في الفترة التي قادت إلى الحرب العالمية الثانية والتي تلتها مباشرة .

ويعكس الأدب المعاصر ـ في حقيقة الأمر ـ الوضع المعاصر ، لا فقط من خلال رسالته اللامنتهية ، ولكنْ في أشكاله القلقة غير المؤكدة . وعلى سبيل المثال فإن عدم تطور موقف في مسرحية « في انتظار غودو» يمثل الشك المعاصر ، ونقصان الثقة بالبنيات الأنيقة والحلول الجيدة ، وليس ذلك في الفن وحده ، ولكن في الحياة أيضاً ، فقد وجب على الإنسان الحديث أن يحيا في انعدام وجود نظام في السياسة والمجتمع والفلسفة والعلم . . ولا بدّ أن يبدو الفن غامضاً حينما لا يكون العصر مسوّغاً للنظام والوضوح . .[١]» .

كان العقل ذات يوم موطن تقدير عند بعض المذاهب والاتجاهات ، فالمدرسة الكلاسيكية آمنت به ، واحتكمت إليه ، واجدة فيه ضابطاً يمكن أن يعصم الخيال من الجموح غير المجدي ، والعاطفة من الاندفاع الأهوج ، ولكن ذلك ما لبث أن تهاوى ، جاءت الرومانسية فسفّهت العقل ، وأنكرت قدرته على النفاذ إلى بواطن الأمور ، فأطلقت للعاطفة العنان ، وعظمت من شأن الخيال ، وآمنت بقدرته الباهرة على اختراق الحجب .

ولكن سيادة العلم مهّدت للاتجاه المادي ، فنشطت الفلسفة الوضعية ، متمخضة عن مذاهب واقعية متعددة ، تسخر من المثاليات ، وتسرف في المادية حتى ما تؤمن إلا بما هو محسوس معاين .

---

(١) اتجاهات جديدة في الأدب ، ترجمة نجيب المانع (العراق : ١٩٩٤) ص٢٠٣ .

ولكنْ - كالعادة - ما لبث أن تغير المزاج ، وتبيّن القومُ عجز العقل الواعي عن إدراك الحقيقة ، واكتشفوا أن وراء هذا العالم المادي المحسوس عالماً آخر لا يدرك بالحواس ، ولا يُنْفَذ إليه بالجوارح . إنه عالم اللاشعور ، عالم العقل الباطن .

وقد رأينا عندما تكلّمنا على ((الدادية)) ما أشاعه علم النفس الفرويدي من أوهام حول النفس البشرية ، وعالم الشعور واللاشعور ، وأن العقل الباطن مصدر أساس من مصادر توجيه السلوك البشري ، وهو نبع الفن الحقيقي ، وأن أم الغرائز - الغريزة الجنسية - تتحكم في حياة الإنسان على غير وعي ، وتطغى على نشاطه وتصرفاته وإنتاجه الأدبي .

ومن رحم هذه الأفكار ولدت مذاهب وتيارات أدبية تتجه إلى «اللاوعي» أو«العقل الباطن» وتشك في قدرة العقل الواعي ، وتتهمه بالعجز عن استكناه جواهر الأشياء ،كالدادية التي تحدّثنا عنها فيما سبق ، والسريالية ، أو «ما فوق الواقع» وغيرهما .

نشأة السريالية

السريالية (Surrealisim) أو ما فوق الواقع هي - كما عرفت - تطوير للدادية ، وقد استعملت هذه الكلمة وصفاً لأول مرة عام (١٩١٧م) في عنوان مسرحية للشاعر الفرنسي «جيوم أبو لينير» (١٨٨٠-١٩١٨م) الذي يعدّ من الرعيل الأخير من الرمزيين[١] .

ويعد الشاعر الفرنسي «أندريه بريتون» رائد هذا الاتجاه الأدبيّ ، وكان من الداديين ، وفي مجموعة «تزارا» وكان قد اطلع مثله على الدراسات التحليلية النفسية التي أنجزها فرويد ، ووقف على آثار الرمزيين ، ولا سيما بودلير ومالرميه ، فاكتشف ما يمكن أن يتيحه ارتياد عالم اللاشعور للفن من إمكانات هائلة .

وكان الداديون قد مضوا في هذا الارتياد ،ولكن ما عرفوا به من غلو وشذوذ وانحراف وفوضى لم يكن مرضياً لأحد ، ولا لبريتون نفسه ، فاختصم معهم حول

(١) معجم مصطلحات الأدب ، لمجدي وهبة : ص٥٥٠ ، والمذاهب الأدبية والنقدية لشكري عياد : ص١٩٨ .

طبيعة هذا الاتجاه ، وخرج عليهم ، وقد انتصر بريتون ، فغيّر اسم هذا المذهب ، مستبدلاً بلفظ «الدادية» ـ المشتق من كلمة لا معنى لها أصلاً ـ اسماً آخر وهو «السريالية» الذي أخذه ـ كما ذكرنا ـ من مسرحية لأبو لينير .

خرجت السريالية ـ إذاً ـ من عباءة الدادية ، في محاولة لضبط مبادئها ، وتحديد أصولها ، وتهذيب الفوضى المستشرية فيها ، وذلك أن حالة اللامعنى واللاقرار التي اتسمت بها الدادية ما كان لها أن تصمد طويلاً .

وعلى نحو ما قام «تيوفيل غوتيه» من قلب الرومانسية ليؤسس البرناسية ، كذلك قام جماعة من الداديين ، وعلى رأسهم أندريه بريتون يؤسسون لمذهب متكامل يخرج الدادية من الفوضى ، ودعا عام (١٩٢٢م) إلى مؤتمر عالمي لجماعة الداديين يحددون به مبادئهم ومواقفهم ، إلا أن ذلك المؤتمر لم ينعقد ، وعام(١٩٢٣م) منع بريتون تمثيل مسرحية «القلب ذو اللحية» في مسرح ميشال ، وبذلك تداعت الحركة الدادية من الداخل ، وعلى أيدي أتباعها ، ومن الصدود النسبي الذي قابلها الجمهور به . .[١]» .

وفي عام (١٩٢٤م) وضع كل من أندريه بريتون ، وفيليب سوبو ، ولويس أراغون المنشور الأول للسريالية ، وحددوا فيه مذهبها بأن قوامه «عفوية نفسية صافية يُتَوخّى منها التعبير ـ شفوياً أو كتابة ، أو بأية وسيلة أخرى ـ عن النشاط الذهني الحقيقي ، وإملاءٌ من الذهن في غياب كل مراقبة يمارسها الذهن عليه ، وبعيداً عن كلّ همّ جمالي أو خلقي[٢]» .

وهكذا تسعى السريالية ـ فيما تدعي ـ إلى تجاوز سلبيات الدادية ، وتحاول أن تتوسع في هذا المذهب ليستغرق ما هو جميل من الفنون ، وليس القبيح القذر فقط كما كانت تقول الدادية التي لم يكن لها غاية ـ كما سبق أن ذكرنا ـ إلا عرض ما هو سخيف ، إذ الفن عندهم نوع من القماءة القذرة شأن الحياة نفسها .

كما تحاول السّريالية ـ فيما تدعي ـ أن تخرج الدادية من سديم الفوضى إلى مذهب أكثر انتظاماً وانسجاماً .

---

(١) الرمزية والسريالية : ص١٩ .

(٢) المعجم الأدبي ، لجبور عبد النور : ص١٣٩ .

أبرز الآراء الفكرية والفنية للسريالية

١- ربط السّرياليون - كالداديين - الفنّ باللاشعور ربطاً محكماً وثيقاً ، بحيث تغيب في عملية الإبداع - على طريقة الحلم تماماً - رقابة الرقيب(الأنا العليا) تغيب رقابة الوعي واليقظة والعقل والمنطق ، فينطلق الإبداع - كالحلم - متحرّراً من كل قيد :قيد العقل ، وقيد الفكر ، وقيد اللغة ، وقيد الأعراف الفنية والاجتماعية والخلقية وغيرها .

ودعت السريالية إلى تحرير الخيال نفسه من أي ارتباط بالعقل الواعي ، ولذلك هاجمت الخيال الرومانسي نفسه الذي عرف بالشطط والغلو ، لأنه - على هذا الجموح - ما زال مبنياً على التنظيم ، وما يزال للمنطق دور فيه ، على حين «تطلب السريالية إطلاق سراح الخيال الحرّ من كل قيد ، الخيال الخام الذي لا وجود له إلا في اللاوعي ، أو في العقل الباطن . وحجتها في ذلك أن عقل الإنسان ومنطقه هما أول عدو للفن ، لأنهما يقتلان ملكة الفهم بالخيال والتعبير بالخيال . .[١]» .

وقد بلغ من عداء السرياليين للعقل الواعي حدّ أن يروا أنه لا يمكن أن يلتقي مع الشعر . يقول كلوديل : «إن لعبة الشعر مع العقل كلعبة الهرّ مع الفأر ، يكاد لا يطل هرّ العقل حتى تهرب فأرة الشعر . .[٢]» .

وكانوا يرون في رامبو مثلاً يحتذى في قوله : «أريد أن أكون المريض والهستيريّ والمجنون والمجرم والقديس . .[٣]» .

فالسرياليون يريدون لتجربة الشعر أن تكون كتجربة الحلم ، لا منطقية ، تعادي العقل ، وتنفر من التسلسل المنطقي ، و من الترابط بين الأشياء والأفكار ، وأن تتداخل فيها الأزمنة والأمكنة والشخصيات ، وأن تزول الحواجز بين الحاضر والماضي والمستقبل ، بل بين الأشياء جميعاً . .

٢- ولقد وصل شذوذ السرياليين ، وعشقهم للتحرر من كل ما هو واقع أو عقلي ، وتوقهم إلى الخروج من وطأة العالم الخارجي المحسوس الذي مقتوه بعنف ،

---

(١) الاشتراكية والأدب . ص٤٠ .

(٢) الرمزية والسريالية : ص٢٣٥ .

(٣) السابق نفسه .

وصل ذلك كله حدّ اهتمامهم بأحوال الجنون ، حتى راحوا يدرسون كل ما يتعلق به ، ومنهم سلفا دور دالي ، لأن النفس تحت وطأة الجنون تتحرر من وطأة العالم الخارجي ، حتى كان دالي يراقب المصابين بعقدة البرانويا ذوي الكبرياء ، والفكرة الثابتة المتآكلة ، وفيها تتولد الانفعالات بالشكل الآلي الذي يبتغيه السّرياليون[1] » .

كما بلغ توق السرياليين إلى التحرر من عالم الواقع ، وإلى الهروب من المنطق والعقل والانضباط أنْ كانوا يلجؤون إلى ضروب من الوسائل الشاذة المصطنعة لكي يغيبوا عن الوعي ، كالأفيون وغيره من المخدرات والمسكرات ، لإطلاق المكبوت في النفس ، ثم يسجلون هذا المكبوت في لوحات أو قصص أو مسرحيات غامضة مضطربة أو هاذية محمومة ، لا يدركون هم أنفسهم لها معنى ، ولا يحددون هدفاً ، وهي بالرموز والأحاجي أشبه منها بالأدب أو الفن[2] .

٣ـ دعا السرياليون إلى الحرية ، وبدا التحرر أساساً هاماً من أسس اتجاههم ، ولكن هذه الحرية ـ في مفهوم السرياليين ـ هي التحطيم ، و التخلص من القيود ، والتحرر من جميع قواعد الفن ، ولذلك هربوا من أي تحديد لمذهبهم ، أو محاولة وضع قواعد له . هاجموا جميع المذاهب والأشكال السابقة من غير أن يضعوا بديلاً . كان «الكفر بالعقل والمنطق ، والنظم الاجتماعية ، والتقاليد والأخلاق ، يعني ـ في نظر السرياليين ـ البحث عن عالم جديد أكثر إنسانية ، فأخذوا يفتشون عن مادة هذا العالم في كل ما رفضه النظام القائم ، وأودعه سجن العقل الباطن . .[3] » .

و قد تمثل هذا الخروج في الفن ـ بدعوى الحرية ـ في رفض القيود اللغوية والفنية ، بل رفض كل أساس من أسس البناء الفني ، ففي الأدب فقدت العبارات اتساق معانيها ، وفقدت الألفاظ دلالاتها الواضحة المعبّرة ، واتخذتها السريالية

---

(١)الرمزية والسريالية : ص ٢٤٣ .

(٢) الفن ومذاهبه ، لمحمد مندور : ص١٣٦ .

(٣) المذاهب الأدبية : ص ١٩٨ .

بمثابة رموز جديدة لأشياء مبهمة لا يدركها العقل ، ولا يدركها الشعور ، وإنما وظيفتها أن تنتقل مباشرة من لا شعور الأديب إلى لا شعور القارئ . .

ولم يتمثل خروج السريالية على كل ما هو عقلي أو مألوف في استخدام الألفاظ والعبارات فحسب ، بل تمثل كذلك في الأشكال التي كان السرياليون يكتبون بها قصائدهم ، فلم يكونوا يكتبونها بالطرائق المعتادة ، بل كانت لهم طرائق عجيبة غريبة في رسم القصائد وكتابتها[١] .

٤ـ ومن قبيل حرص السرياليين على الخروج على ما هو مألوف ، وجريهم اللاهث وراء الإبهار المباين للمعتاد ، تبنيهم كل ما هو عجيب ، مهما كان شاذاً أو هجيناً ، أو مخالفاً للذوق والأعراف والأديان ، حتى كان شعار بريتون مؤسس هذا المذهب : «العجيب دائماً جميل ، كل ما هو عجيب فهو جميل ، بل ليس هناك ما هو جميل إلا العجيب . .[٢]» .

٥ـ ولأن التمسك ببعض الثوابت في الأديان أو الأعراف الخلقية والاجتماعية يخالف ـ في نظر السرياليين ـ ما يسعون إليه من الإدهاش والإغراب والتعجب ، ثار هؤلاء القوم ـ كما عرفت ـ على هذا كله ، فعرفوا بكراهيتهم للإنسانية ، ورغبتهم في الهروب منها ، وبعدائهم للدين ، حتى راحوا يهاجمون بعض النشاط الديني الكاثوليكي ، وأخذوا ينادون بأن مشكلة الإنسان الحديث يجب ألا تحلّ عن طريق الدين[٣] .

٦ـ ولقد كان كثير من السرياليين مثل الداديين الذين خرجوا من أصلابهم غير أسوياء ، ولا أصحاء ، كان في بعضهم لوثة وجنون ، تعاطوا المخدرات ، وانتشوا بخمرة التسكع في الشوارع ، ادعوا أن مذهبهم مغامرة لا يفزعها الجنون ، ولا الانتحار في البحث عن الإلهام ، بل كان الانتحار مبدأ هاماً لديهم ، وكان التحطيم غاية لهم . .[٤] .

---

(١) انظر نماذج من ذلك في كتاب « الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر» لعبد الحميد جيدة (بيروت :١٩٨٠) ص١٢٧-١٦٠ .

(٢)فن الشعر ، لإحسان عباس : ص٨٧ .

(٣) السابق : ص٨٩ .

(٤)السابق .

وخلاصة القول : إن السريالية ـ كما ترى ـ اتجاه آخر من هذه الاتجاهات الحديثة التي تمثل وجهاً من وجوه التمزق في المجتمع الغربي .

إنها اتجاه قوم من البائسين المهمومين ، الهاربين من مآسي مجتمعاتهم وتناقضاتها ولا إنسانيتها ، قوم من الشواذ المنحرفين الثائرين على كل شيء لأنهم لم يعودوا يؤمنون بشيء .

وهم لم يقدموا أدباً أو فناً فحسب ، بل قدموا فلسفة لهم تهدف إلى تغيير الحياة لخلق إنسان جديد متحرر من جميع القيود والأعراف والقوانين .

وقد رأى بعض الدارسين أن «السريالية» هي آخر مراحل التطور في الاتجاه الرومانسي ، وآخر كهف للذين يمقتون الإنسانيّة أو يودون الهرب منها ، وهي ـ في نظره ـ مذهب في الحياة أكثر منها طريقة في الشعر والفن[1] .

ولم يعدّ دارسون آخرون السريالية مذهباً ، وشك في إمكانية إدراجها بين عداد المذاهب الأدبية والفنية ، لأنه لم يكن لها أصول ولا قواعد أدبية أو فنية[2] .

وما لبثت هذه البدعة الجديدة أن فقدت حماستها واندفاعها الأول ، فبدأت تذوب في تيار الحداثة الجارف ، وتصبح موجة من أمواجه الكثيرة . .

وقد ذكر بعض الباحثين أن السريالية مرت بثلاث مراحل ، ففي فجر ظهورها الذي يقع بين(١٩٢٠ـ١٩٣٠) تميزت بالمحاولة الفنية لتسجيل ما يمليه اللاشعور والأحلام ، ومن الناحية السياسية كان أصحابها في صف الشيوعية . والمرحلة الثانية(١٩٣٠ـ١٩٤٠)وهي مرحلة ازدهار السريالية حينما وهنت الروابط بينها وبين الشيوعية .وأما المرحلة الثالثة فقد بدأت بعد سقوط باريس في أيدي النازيين سنة(١٩٤٠) وتشتت السرياليين بعد ذلك ، وانتقال مدرستهم إلى أمريكا حيث انفصمت عراهم ، وأصبحوا أحزاباً وشيعاً صغيرة[3] .

---

(١)السابق ٨٦-٩٠ .

(٢)الفن ومذاهبه ، لمحمد مندور : ص١٣٧ .

(٣)معجم مصطلحات الأدب ، لمجدي وهبة : ص٥٥٠ .

خرجت السريالية على الدادية بسبب ما اتسمت به هـذه الثانيـة مـن فوضـى واضطراب ، فإذا بها لا تقل فساداً عنها ، فهما معاً من مشكاة واحدة ، مشكاة فكـر فرويد بكل ما أتى به من أوهام وترهات لا تثبت أمام الحقيقة العلمية ، ولا يؤيدها سند يوثق به .

والسريالية ـ ومثلها الدادية ـ تيار هام في مدرسة اللاوعي ، التي شملت عدة حركات أخرى ، تقوم كلها على معاداة الواقع ، ولكن السريالية هي أهم تيار في هذه المدرسة .

وأغلب ما أتى به السّرياليون والداديون ـ إن لم نقل كله ـ مخالف ـ كما تـرى ـ للتصور الإسلامي ، بل لا يتفق مع الفطرة الإنسانية السـوية ، لأنـه فكـر منحـرف يصادم الأديـان والعقـل والمنطـق والأعـراف والأخـلاق التـي يحتقرهـا السـرياليون والداديون أصلاً ، ولا يقيمون لها وزناً .

إن ترهات فرويد عن النفس البشرية جاءت لتكمل حالة الضياع التي يعيشـها الإنسـان الغربـيّ ، بـل مأسـاة التمـزق النفسـي ، والفـراغ الروحـي لإنسـان القـرن العشرين ، ولتزيده خبالاً على خبال ، وضياعاً على ضياع .

لقد صورته سيكولوجية فرويد ـ التي صدرت عنها تيارات اللاوعـي ومنـها السـريالية والدادية ـ حيواناً حالماً ، تحركه غريزته الجنسية ، وتطغى على نشاطه كله ، وبذلك راح هذا الإنسان يبتعد عامداً عن كل منطق وعرف وانضباط ، ليعيش حالة من الصعلكة الفكرية والشك والقرف من كل ما حوله من الأعراف والقوانين .

قـد تكـون السـريالية تحمـل دعـوة إلـى الاقـتراب بـالأدب مـن الصـدق والعفويـة ، والابتعاد به عن التكلف والزيف ، وذلك أن بعض الأدب قد يكون حقـاً وليـد مكبوتـات في اللاشعور ، ولكن نزعة السريالية إلى الهدم والتحطيم ، وإلى عد م القـدرة علـى تنظيـم أفكارها في مذهـب واضح القسـمات ، أضـاع هـذه الومضـات الإيجابيـة ، وأغرقـها فـي سديم من الفوضى والعدمية ، ولم ينتـج عنـه ـ عنـد التطبيـق ـ إلا أفكـار مشوشـة وصـور هاذية أشبه بالهلوسة والجنون .

انحراف السريالية :

١ـ أدب السريالية ـ إن صح أن يسمَّى ما أنتجه السرياليون من الكلام الغامض المضطرب ـ أدباً ، هو أدب ثورة وتحطيم وهدم ، للأعراف اللغوية والفنية ، وللأنظمة الخلقية والاجتماعية ، وثورة هؤلاء القوم ثورة سلبية ، لأنها تحطيم من غير بناء ، ولا إحلال للبديل محل المهدوم .

لقد رفض السرياليون حتى مجرد تحديد ملامح لمذهبهم الذي دعوا إليه ، أو وضع قواعد وأصول له ، فكانوا بذلك مرحلة من مراحل الحداثة التي عُرفت بالنفرة من المعايير الضابطة المنظِّمة .

٢ـ السريالية ـ كما عرفت ـ تحتقر الأديان والأعراف والمنطق والعقل ، وهي دعوة إلى «الكفر بالعقل والمنطق ، والنظم الاجتماعية ، والتقاليد ، والأخلاق . الذي يعني ـ في نظرهم ـ البحث عن عالم جديد أكثر إنسانية . .[١]» .

ومن ثم يبدو من نافلة القول أن نضرب هذه البدعة الغربية على محك قيم هي معادية لها أصلاً ، وخارجة عليها .

إن السريالية ـ كما تحب هي أن توسم ـ موجة من موجات الفكر الإلحادي الكثيرة ، التي تتباهى بإلحادها ، وترى فيه الخلاص للإنسان من العبودية والأغلال التي تقيده بها الأديان والأعراف والتقاليد .

٣ـ احتقر السرياليون ـ كما رأيت ـ العقل أيما احتقار ، ولكن الإسلام كرّمه أيما تكريم .

يقول الإمام الحافظ ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ «إن اعظم النعم على الإنسان العقل ، لأنه الآلة في معرفة الإله سبحانه ، والسبب الذي يتوصل به إلى تصديق الرسل . .[٢]» .

فهذا العقل هو مناط التكليف ، وهو الذي يقود إلى معرفة الخالق ، وإلى إدراك عظمة الكون ، وعجيب صنعه ، ومن ثمّ رفع التكليف عن المجنون ، وفاقد الوعي ،

---

(١)المذاهب الأدبية والنقدية ، لشكري عياد : ص١٩٨ .

(٢)انظر تلبيس إبليس : ص٤٢٢ .

والمكرة المغيب عن الشعور والإدراك . وذكر الله العقل وأصحاب العقول بقوله : ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ .

أما السريالية والدادية فقد احتقرتا هذا العقل الواعي ، بل لجأتا إلى كل المحرمات والموبقات : كالخمر ، والمخدرات ، والتنويم المغناطيسي ، والجنون ،من أجل تغييبه والهروب منه ، والارتماء في أحضان الغيبوبة ، وفقدان الوعي والشعور .

ومن تناقض السريالية الكبير أن السريالية ـ كما يلاحظ بريستلي ـ تصطنع بواسطة العقل حالة منافية للعقل[1] .

٤ـ والأدب السرياليّ ، الذي أنتجه قومٌ هاربون قَرِفُون ، هو كذلك أدب هروبي ، لا يعبأ بمشكلات المجتمع ، ولا بهموم الإنسان ، وهو مجرد من الوظيفة والهدف ، لا يهمه إلا الإبهار والإدهاش بما هو شاذ عجيب .

على حين أن الأدب ـ في التصور الإسلامي ـ هو هادف جاد ، وهو نشاط فكري إيجابي ، يدعو إلى الخير والصلاح ، يحمل بذرة التغيير نحو الأحسن ، والبناء لما هو أصلح . والكلمة فيه مسؤولية ، والأديب رائد في قومه ، يذيع فيهم قيم الحق والفضيلة ، ويقف ـ بقلمه الشامخ الأبيّ ـ في وجه الباطل والانحراف .

ولأن الكلمة مسؤولية ، وهي في موطن المحاسبة ـ ثواباً أو عقاباً ـ فهي نتاج العقل الواعي اليقِظ ، وإذا ما أنتج الأديب شيئاً وهو في حالة من حالات اللاوعي ، أو اللاشعور ـ وقد يحدث ذلك في القليل أو الكثير من الحالات ـ فإنه لا يذيعه في الناس إلا وهو في حالة الوعي ، ولذلك فهو يراجعه ، ويعيد فيه النظر الكرة بعد الكرة ، ليطرح ما يمكن أن يكون اللاوعي قد سربه إليه من فكر سقيم ، أو تصورات عليلة . .

٥ـ ويتجافى مع الإسلام ، ومع غيره من العقائد السماوية ، ما عُرف به السرياليون من تمجيد للانتحار ، ومن دعوة إليه ، بل لجوء بعضهم إليه ، وهو مما حرّمه الإسلام ، وجرّم فاعله ، وعدّه خروجاً من الدين ، لأنه هروب من الحياة ، وتدخل في حكم الله الذي بيده الحياةُ والموت ، وهو وحده الذي يملك أجلهما . .

(١) المذاهب الأدبية والنقدية : ص١٩٨ .

والإنسان المسلم لا يفر من الحياة ، ولا يهرب من قدر الله تعالى ، بل هو إنسان إيجابي فعّال ، يستقبل ما يلقى في حياته من خير أو شر بنفس مطمئنة قانعة ، صابرة على الضراء ، شاكرة على السّراء ، ويعدُّ ذلك كلّه من قضاء الله وقدره ، وهو نوع من الامتحان ـ ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ .

ولكن السّريالي إنسان سلبي هروبيّ قرِف من الحياة ، متبرم بها ، لا همّ له إلا أن يلعنها ، ويلعن ما فيها من قيم وأعراف وأديان وأخلاق ، ويكفر بها ، ويستبدل بها جميعاً الشذوذ والانحراف والخروج على المألوف .

٦ـ وليس يعدُّ صحيحاً ، ولا يتفق مع التصور الإسلامي ، ولا مع العقل السليم ، ما يزعمه السرياليون من أن كل عجيب جميل ، وأن العجيب وحده هو الجميل ، فإن هذه لو صحّ ـ وما هو بصحيح ـ لوُسم بالقبح كثير من الأشياء الجميلة بسبب أنها قيم ثابتة أو راسخة ، أو معتادة ، أو بحكم أنها من السنن التي لا يدخلها التجديد ، أو التحويل ، أو التغيير .

كما أن هذا الرأي لو صحّ ـ وما هو بصحيح ـ لعُدّ كلّ شاذ هجين جميلاً لأنه عجيب غريب يكسر المألوف .

إن ارتياد عوالم الدهشة والتجديد والأغراب لأمر مطلوب في الحياة وفي الفكر والأدب ، وفي كلّ شيء ، ولكن ذلك لا يكون بالخروج على الأديان والأعراف ، ولا يكون بالشذوذ والانحراف ، ولا يكون بكسر المنطق ، واحتقار العقل ، ولكنه يكون من خلال التزام ذلك كلّه ،وإلا فهو المنكر القبيح الذي لا يمكن أن يوصف بالجمال ، هو القبيح مهما كانت نضارته الظاهرية . .

إن الجميل في الإسلام هو النافع المفيد ، هو الحق والخير ، هو كل ما لا يضر الناس ، و يفسد الحياة ، أو يخرج على سنن الله في الكون .

٧ـ ثم إن السرياليين وأمثالهم من الداديين وغيرهم ـ وهم يغترفون من اللاشعور ، ويصدرون عن العقل الباطن ، ويحتقرون العقل الواعي والمنطق ـ لم يستطيعوا أن ينتجوا كلاماً مترابطاً ذا معنى ، بل أنتجوا كلاماً غامضاً مضطرباً أشبه

بهلوسة المجانين ، وهذيان المحمومين ، بل أنتجوا ـ بوصف محمد مندور ـ ما هو «بالرموز والأحاجي أشبه منه بالفن[1]» .

ولا شك أن هذه العدمية والغموض وعدم الترابط الذي عُرِفَ به كلام السرياليين أمر بدهي مُسَوَّغ ، فما دام الوضوح والمنطق والنظام وضوابط العقل الواعي ،مرفوضة في عرف هؤلاء القوم ، وهم متعمدون الخروج عليها ، فماذا يُتَوَقَّع أن يخرج من تحت أيديهم ؟

(١) الأدب وفنونه : ١٣٦٩ .

لم يمنع هذا العُوارُ الذي لا مثيل له في هذه البدعة الغربية الشاذة ، ولا خروجُها على الدين والأخلاق والعقل وأعراف اللغة والمنطق ، لم يمنع ذلك كله قوماً من بني جلدتنا أن يحتفوا بها ـ كالعادة ـ لأنها جاءت من عند «الخواجا» وأن يفسدوا الشعر العربي والذوق العربي ، بما فيها من أو شاب وترهات .

وجدت السريالية أتباعاً لها عند طائفة من شعراء الحداثة من أمثال : أنسي الحاج ، وشوقي أبي شقرا ، وفؤاد رفقة في لبنان ، ومن أمثال أورخان ميسّر ، وعلي ناصر ، في سورية . . وغير هؤلاء في أماكن متفرقة . .

وهنالك نماذج غير قليلة من الشعر العربي الحداثي تلوثت بأوضار هذه البدعة ، «وتلونت بألوان مختلفة من المفاهيم السريالية ،حيث صار الشعر عند بعضهم ضرباً من الهذيان ، أبعد من هلوسة السرياليين . .[1]».

وحسبنا أن نسوق شاهدين من الشعر السريالي ، أحدهما لأورخان ميسر ، وهو شاعر سوري من رواد السريالية العربية . كتب ميسّر :

تمثال رائع
يحمل رأساً كلها عين
دخان . . بريق يعمي البصر . . ضوضاء
سديم يسبح في صمت
حدباء في فقرتها العابسة
عين من زجاج
الأم : مأتم صامت

والشاهد الآخر ، لصديق أورخان ،الشاعر السوري علي ناصر ، يقول :

واحد أيار

(١) شجرة النقد ، لمنيف موسى (بيروت : ١٩٩٢) ص٦٧ .

دهر

ضجر

جماد ناطق

جليد

غفوة سمحاء

دموع مغلقة

غلة تنقع

قشرة جد وحشية

سعير

***

عيون

جداول

جنة

***

دموع مجلجلة

دموع محترقة

جهنم . . جنة

عين ذات كوتين

هذان شاهدان لشاعرين من رواد السريالية العربية نقلتهما كما أثبتتهما سلمى الخضراء الجيوسي في كتابها «الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث[1]» واكتفت بقولها في التعليق عليهما :

(١) ترجمة الدكتور عبد الواحد لؤلؤة ، ٢٠٠١م ، ص ٥٤٥-٥٤٦ .

«لا بدّ أن ميسر قد أدرك أن الذوق الأدبي العربيّ لن يتقبل مثل هـذه الكتابـة المتطرفة . .» .

ولن يخفى على من كان لديه أثارة من ذوق فني أن هـذه الألفـاظ لا يمكـن أن تنتسب إلى الأدب ، بل إلى الكلام نفسـه ،إنـها ألفـاظ مشـتتة ، وعبـارات ركيكـة مفككة ، متناثرة على وجه الورق كيفما اتفق مـن دون أي رابـط أو نظـام ، تشـبه ـ كما قال محمد مندور بحق ـ هذيان المحمومين ، أو هلوسـة المجـانين ، ، لا تقـدّم أيـة دلالة ،ولا تعبّر عن أية تجربة ، ولا تحمل الإبهار والإدهاش اللذيـن يتحـدث عنـهما السرياليون .